آراء وأخبار

كافور وسيف الدولة

أنكر الاستاذ سعيد الأفغاني تحت هذا العنوان في مجلة المجمع العلمي العربي ما جئت به للاستدلال على شذوذ الطموح في أبي الطيب المتنبي لما استذل لطمعه إذ قلت: إن روح أبي الطيب في الإباء قوية، لكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي وإفراطه في هذا الطمع غطى على هذا الاباء في بعض المواقف، وإلا فما معنى قوله في كافور بعد أن ترك سيف الدولة: «قواصد كافور الخ ..» ثم قلت: «يقول هذا وكثيراً مثله فيه وهو (في نظر المتنبي طبعاً لان ما بعده حل لنظمه) العبد الزنيم الذي أذنه في يد النخاس، دامية وقدره وهو بالفلسين مردود (الخ) ثم قلت وهو (أي أبو الطيب) يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالا كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بحد، وما كان كل ذلك إلا طمعاً في الولاية، ولعله طمع في خداع هذا الأسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في تملقه»

إن كلامي هذا ظاهر في أنني لم أكن في بحث المفاضلة بين سيف الدولة وكافور، بل في الاستدلال على استخذاء أبي الطيب لطمعه، فأخذته على عمله في غير ما يراه ويعتقده من صفات كافور، ولم أتعرض للحكم عليها بنفي ولا بإثبات، وقولي (وهو يعلم) (وبما يحسبه) يدل على ذلك، وإذا كان المتنبي يرى كافوراً أسود مخصياً أذنه دامية في يد النخاس وقدره دون الفلسين فكيف يجعله فوق العالمين، أفلا يكون بهذا مستخذياً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لطمعه الذي أثاره فيه حسبان كافور ضعيف العقل لانه سوداني .

لكن الاستاذ الافغاني حسب أنني حكمت بذلك حكماً ، فوعظني بأنه ما كان لمؤرخ أن يصدر حكماً على رجل لمقول شاعر فيه (الخ) فجاءت موعظته لي في غير موردها .

رأيته ، ثبته الله بالقول الثابت ، ينكر إنكاراً شديداً كون كافور زنيما بعد تسليم كونه عبداً أسود ويلح علي بأن أقيم البينة على ذلك من التاريخ ولا يقنعني من الجواب البتة ، فكأنه لم يبحث معنى الزنيم في لغة العرب ، فالزنيم فعيل من الزنمة ، وهي اللحمة المتدلية في الحلق ، قاله الليث وغيره وهي العلامة كما جاء في التاج ، والتزنيم من سمات الابل (أي علاماتها) كما قال الأئمة وقالوا معز زنيم كأمير له زنمتان ، وقالوا ان الزنمة شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلقاً وإنما يفعل ذلك بكرام الابل قاله الجوهري . وقال الاحمر : السمات في قطع الجلد . الرعلة وهي أن يشق من الاذن شيء ثم يترك معلقاً ومنها الزنمة ، وهو ان تبين تلك القطعة من الاذن . وقال في التاج ومن المجاز الزنيم كأمير ، المستلحق في قوم ليس منهم ، وبه فسر الفراء قوله تعالى: عتل بعد ذلك زنيم ، زاد غيره لا يحتاج اليه فكأنه فيهم زنمة ، وفي لسان العرب وقوله تعالى عتل بعد ذلك زنيم ، قيل موسوم بالشر لان قطع الأذن وسم ، وفيه أيضاً ان الزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها ، فاستعمال الزنيم بمعنى الموسوم بسمة استعمال صحيح جاء على سنن العرب ، وكافور كان عبداً اشتراه ابو بكر محمد بن طغج الاخشيد من محمود ابن وهب بثمانية عشر ديناراً كما جاء في وفيات الاعيان ، والثمن بخس كما ترى يدل على زهد بائعه فيه ، واذا كان الاخشيد رفع منزلته بين مواليه وصيّره اتابك ولده أبي القاسم محمود وأبي الحسن علي ، فكافور لم يرعَ لسيده حق هذه النعمة لما نحّى ولد ابنه أبي الحسن عن عرش مصر وجعله لنفسه وقد أشار أبو الطيب الى ذلك بقوله :

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيدُ

وكافور كان موسوماً بسمة العبيد لانه كان مخصياً ، وهذا لا يحتاج الى دليل ؛ ثم ان في شعر أبي الطيب ما يدل على أنه كان مثقوب الشفة ، وهذه سمة أخرى من سماتهم ، فهو زنيم حقيقة من هذه الجهة ، وكافور كان لئيم الأصل ، وقد جاء في لسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب في مادة ل ء م « اللؤم ضد العتق والكرم واللئيم الدنيء ، الاصل » وفي مادة ش ر ف « الشرف الحسب بالاباء ، والشرف والمجد لا يكونان الا بالاباء ، ويقال رجل ماجد : له آباء متقدمون في الشرف » فكافور زنيم مجازا من هذه الجهة أيضا، ومن كلام الائمة ان الشرف والمجد لا يكونان الا بالاباء تعلم ان النسب له قسط وافر في اجلال صاحبه وتكريمه وارتفاع شأنه في النفوس ؛ وإذا كان الشرع الاسلامي العادل لم يجعل تفاوتا في الناس بين شريف ومشروف في احكامه وواجباته وفرائضه فكذلك لم يجعل تفاوتا فيها بين الصبيح والدميم مثلا، ولكنه لم يحظر على الناس ميلهم النفسي واجلالهم واستملاحهم لشريف النسب وصبيح الوجه ونفورهم من دنيء الاصل ودميم الخلقة ، وقد اكرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابنة حاتم الطائي لان اباها حاتم ، وحذر من خضراء الدمن وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء .

نعم ان الشرف ليغطي عليه العمل السيء ودناءة الاصل يسترها العمل الصالح ، وما أحسن قول القائل :

ورثنا المجد عن آباء صدق أمأنا في ديارهم الصنيعا
اذا الحسب الرفيع تداولته بناة السوء أوشك أن يضيعا

واني أرى الاستاذ الأفغاني لم يعمل بما وعظني به اذ طفت فيه حفيظته فلم يقف موقف التجرد والانصاف ووزن الاقوال وما لابسها من ظروف ، ولم يعمل بالتروي والاناة والاستقصاء في بحثه ، هذا اذ وقف في حديثه عن سيف الدولة وفي الحكم عليه موقف المغيظ المحنق ، ولا أريد أن أقول ان الشعوبية حملته على ذلك لانني لم أتحقق السبب الذي جعله ينكر كل حسنة لهذا الامير العربي المجاهد الذي أحيا الادب العربي بعد أن كادت تدرسه سلطة الموالي، وحفظ ثغور العرب والمسلمين بعد أن كادت تجتاحها جيوش الروم ، ولو أنه تنازل الى التسليم بما قاله الاستاذ العلامة صاحب خطط الشام من انه كان من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولكن حسناته أكثر ، لالتمسنا له عذراً . اما ان يجرده من كل حسنة ، بل يجرّد من صفات الانسانية والرحمة كل من يرضى ان يعد سيف الدولة في حيز الطغاة العتاة من كبار المجرمين في التاريخ ، فذلك تحامل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظاهر لا يدل على التجرد في البحث وفي خدمة التاريخ مع أن سيف الدولة كما قال أهل التاريخ قد أفنى نصف عمره في حفظ ثغور المسلمين وحماية ديارنا السورية العربية من هجمات البيزنطيين القوية ، بل حفظ لهذه الارض كيانها العربي وهي قرة عين كل ناطق بالضاد لما أراد الروم أن يذلوها ويجوسوا خلالها ويجلوا عنها أهلها وأن يقضوا على كلمة التوحيد في منابرها ومنائرها كما فعلوا في طرسوس يوم سلمها اليهم رشيق النسيمي وأوجبوا على كل من اختار المقام فيها ان يترك دينه، ومن لم يفعل فليرحل ولايحمل غير ما استطاع حمله من متاعه ثم خربوا المساجد وأحرقوا المصاحف . لمثل الدفاع عن هذا وقف سيف الدولة موقفه الشريف الذي يفتخر به كل من يجري في عرقه الدم العربي . واسمع ما يقول المؤرخون من أن سيف الدولة جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئا عمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده فانفذوا وصيته .

وما يقول يا قوت في معجمه عند ذكره في الثغور ثغر طرسوس « ثم لم يزل هذا الثغر وهو طرسوس واذنه والمصيصة وما ينضاف اليها بايدي المسلمين والخلفاء مهتمين بامرها لا يولونها الا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد، والحروب بين أهلها والروم مستمرة والامور على هذه الحال مستقرة حتى ولي العواصم والثغور الامير سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان فصمد للعدو وامعن في بلادهم، واتفق أن قابله ملوك اجلاد ورجال أولو باس وجلاد وبصيرة بالحرب والدين شداد فكانت الحرب بينهم سجالا »

وأرى أن الاستاذ الافغاني لم يعمل بوزن الاقوال وما لابسها من ظروف في بحثه هذا إذ لم يقدر قوة جهاد هذا الامير العربي الصميم في حفظ كيان هذا الوطن العربي العزيز بمثل جهوده الجبارة ازاء هذه الملوك الاجلاد واولئك الرجال ذوي البأس والجلاد . ازاء قوى الامبراطورية البيزنطية (وما اشبهها في بعض الوجوه بجهود فلسطين العربية الجبارة امام المطامع الصهيونية وقوى الامبراطورية الانكليزية) هاجم البيزنطيون هذه الديار بجيشهم المنظم الوفير العدة الكثير العدد بقوده قواد عظام أمثال نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس وكانت تجريدته في أكثر هجماته لا تقل عن مائتي الف مقاتل منظمة في خططها ومواصلاتها تحمل السلاح الفتاك وتسلط النار الاغريقية وترسل الدبابات الضخمة وإلى جانبها اسطولهم العظيم وليس للامير العربي سوى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رقعة صغيرة من هذه الديار وليس وراءه من ملوك المسلمين والعرب الا من لا يعضده في جهاده ولا يؤازره في دفاعه وليتهم اقتصروا على ذلك فان الكثير منهم كان عونا لاعداء الوطن عليه إذ كانوا يشغلونه عن جهاده بمحاولتهم فتح ما كان في يده من هذه الرقعة فضلا عن خيانة بعض رجاله الطامعين في عرشه كابن أخيه ناصر الدولة وهبة الله صاحب حران اللذين اغتنما فرصة شغله في جهاد الروم فارهقا الرعية ظلما وجوراً ليستعينا على امتلاك عرشه واظهرا الغدر والخيانة لامير هما المغوار ، ومثل غلامه نجا الذي أرسله لاخماد ثورتهما فخانه هو أيضا بعد أن ارتكب من الظلم والجور في الرعية الوانا ، كافراً بنعمة سيده بينما سيده في ميا فارقين يرابط في الثغر ويكابد مضض المرض ويفادي أسرى المسلمين ، وكانوا يومئذ الفي أسير أخرج في فدائهم مائة وستين الف دينار ولما لم تقم بها خزائنه رهن درعه الجوهر المعدومة المثال .

وكولاه رشيق النسيمي الذي سلم ثغر طرسوس للبيزنطيين بشروط ثقيلة مرهقة أجلت المسلمين عنها إذ أثار أهل أنطاكية منذ رجع اليها وسار بهم إلى حلب مع من انضم اليه من مرتزقة الديلم وغيرهم لينتزعها من قرعويه غلام سيف الدولة وسيف الدولة في الثغور يفادي الاسرى .

ولم تكن تجريدة سيف الدولة في أعظم واقعة له مع جيش الروم اللجب تزيد على ثلاثين الف مقاتل ، وفي بعضها كانت لا تتجاوز أربعة آلاف وليس لها من السلاح سوى السيف والرمح وقلوب ملؤها الايمان وحب العروبة والاسلام .

وإذا كان سيف الدولة وحاله هذه وأنت تعلم وأنا أعلم أن الجهاد لا يقوم بغير نفقة ومال ، فهل يكون سيف الدولة جباراً عتياً إذا فرض الضرائب للقيام بامر هذا الجهاد ، وماذا يفعل المال مع الباخلين به إذا اجتاح عدوهم أرضهم وديارهم واستعفى كرائم أموالهم وذبح أطفالهم ونساءهم كما فعل بطرسوس . انه إذا فرض الضرائب فانما يفرضها لذلك لا لأجل أن يجيز شاعراً مدحه بقصيدة !! ولئن فعل وقوى روح الادب في الامة بشيء من هذه الاموال (وبقوة الادب تقوى الامة وتعلو ثقافتها) أو أراد بذلك تأييد الدعوة للالتفاف حوله في مثل هذا البحر الزخار بامواج الفتن التي اقبلت تترى كقطع الليل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المظلم وهدفها إفناء العرب واذلال بلادهم فهو معذور أيضا ولا يكون بذلك جباراً عتياً بل يكون ذلك من لوازم جهاده .

وأما أن الاستاذ الأفغاني لم يعمل بالتروي والاستقصاء فانه أخذ على سيف الدولة ما نقله عنه الشريف العقيقي لاهل دمشق من أن غوطة الشام لا تصلح الا لرجل واحد، وأنها لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرأ منها أهلها . لكن هذا الكلام لم يروَ الا عن الشريف العقيقي، ولعل هذا الشريف كان له ضلع مع الاخشيدية او هو من دعاتهم سراً فاختلق هذا الحديث أو حرفه بما يثير به الدمشقيين على سيف الدولة لينفضوا يدهم من طاعته وينحازوا الى الاخشيديين . ولو صحت الرواية و كان سيف الدولة قال هذا القول فهل خرج عن ان يكون حديثاً مما يتحدث به الناس من خطرات سانحة لا تلبث ان تضمحل، وإلا فلمَ لم يفعل ذلك سيف الدولة ان لم يكن في غوطة دمشق ففيما يشابهها من البلدان التي كانت تحت أمره وهل يحاسب المرء على قول قاله ولم يفعله ؟

ثم انه جعل أول ميزات كافور « انه كان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول اللهم لا تسلط عليّ مخلوقا » ونعم العمل طاعة الله والتهجد وتعفير الوجه له وارسال وقر بغل من صرر الدراهم كل ليلة عيد للعلماء والزهاد والفقراء » ولكن ألم يكن من أحسن الصدقات وأفضل القربات إلى الله يومئذ أن يجعل نصيبا من وقر هذا البغل لحماة الثغور المجاهدين في سبيل الله وهم يومئذ وفي مثل تلك الحال أحق وأولى، ولمَ لم يفعل ؟!! ثم ما هو وقر البغل من الدراهم يرسل كل عام مرتين ولا يزيد في المرة على أربعين الف درهم وإن شئت قل نحو الفي دينار وأين هي من مائة وستين الف دينار بذلت دفعة واحدة في فداء اسرى المسلمين وفكاك مجاهديهم من ربقة الاسرة واين اتساع رقعة ملك كافور وهو يضم الديار المصرية كلها وقسما كبيرا من الديار الشامية من رقعة ملك سيف الدولة وهو لا يتعدى حلب والعواصم والثغور ، ثم ماذا يغني التهجد وتعفير الوجه والعدو على الباب يريد الفتك بذوي التهجد وامتهم ودينهم إذا لم تعدّ له الامة وملوكها ما استطاعوا من قوة ، وما الذي فعله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحبك كافور في هذا السبيل ؟ ايمثل هذا كان صاحبك سماء وصاحبنا أرضا ؟!!

ثم بماذا كان سيف الدولة جباراً عتيا سفاكا للدماء : ابتأديبه الباغين عليه ليستقيموا له فيتفرغ لمناصبة عدوهم وعدو وطنهم ؟ ام بفتكه بالبيزنطيين في دفاعه عن ارض العروبة والاسلام ؟ ام بماذا ؟

انني ايها الاستاذ ما كنت محباً لمثل هذا الجدل ، فالحقيقة ظاهرة يعرفها كل منصف مدقق لولا انك ألححت بطلب الجواب عن كون كافور زنياً ولم تقاني منه ، فوداعاً ايها الاستاذ .

النبطية . جبل عامل . ٢٨ المحرم سنة ١٣٥٦ و٩/٤/١٩٣٧

احمد رضا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net